(٨)
مواقف النديم تجاه العرابيين بعد عابدين

استقرت الأمور فى الحقبة الأولى من نظارة شريف الدستورية التى أكدت أن تشكيل مجلس النواب هو الوسيلة الوحيدة للإصلاح، وابتعد رجال الجيش عن مسرح السياسة قليلا، وعادوا إلى ثكناتهم كطلب شريف باشا وتصميمه على ذلك، كما استجابوا لطلبه بالابتعاد عن العاصمة فخرج عبدالعال حلمى بالآلاى السودانى إلى دمياط فى موكب شعبى كبير، وفى وسط هذا الجو المشبع بالوطنية وقف النديم يلقى خطابا إلى حماة البلاد وفرسانها حيّا فيه رجال الجيش وأشاد بشجاعتهم وهنأ الحزب الوطنى على فوزه ودعا الأمة كلها إلى الاتحاد والتعاهد على حفظ الوطن واختتم خطابه بقوله: "وأحسن ما يؤرخ به

obeikan.com

اسم الجهادى عند النوازل أن يقال(مات شهيد الأوطان) فنادى الجميع : رضينا بالموت فى حفظ الأوطان". ثم سافر النديم مع الآلاى إلى دمياط وهناك ألقى خطابا حماسيا فى المحتشدين مدح فيه رجال الجيش الذين أنقذوا البلاد من جو الاستبداد كما لقب عرابى "بمحرر البلاد".

ولما تأهب عرابى للسفر بآلايه إلى رأس الوادى فى ١٨ أكتوبر ١٨٨١ خرجت البلاد لتودع بطلها وازدحمت شوارع القاهرة بالمشاهدين تستقبله بحماسة وكان النديم بجانبه، وبعد أن خطب عرابى فى المحتشدين قام النديم بناء على طلب الحاضرين وألقى خطبة قوية وضح فيها أحوال البلاد قبل انتفاضة الجيش مبينا الإرهاب والظلم واستعلاء الغرباء على أهل البلاد حتى نهض الأحرار من أبنائها فخلصوها من المحنة وأشار إلى الأطماع الخارجية المتربصة بالوطن وضرورة التمسك بالحكمة والصبر واجتماع الكلمة لمواجهتها، كما تحدث عن الحرية فقال: " وليست الحرية تتبع الشهوات البهيمية والأغراض الذاتية، وإنما هى معرفة الحقوق والواجبات"، وقد بالغ النديم فى أثناء خطبه "فى التنكيت والتبكيت حتى أخذ بالعقول وكاد يبكى الناس".

رافق النديم قائد الثورة فى سفره إلى رأس الوادى، وكان يخطب فى الأهالى الذين يجتمعون عند كل محطة، وعندما

وصل القطار إلى الزقازيق ازدحمت الجماهير الكثيرة، وأقيم احتفال تكريما لعرابى حضره نحو ألف شخص خطب فيهم عرابى، وحينئذ طالب الناس النديم بأن يخطب فيهم فاستجاب لهم، وما إن فرغ من خطبته حتى استزادوه فعاد وخطب مناديا بالوحدة والتمسك بالحرية.

ولم يكد شريف باشا يسمع بتردد الفلاحين والعربان على عرابى وبأن الشرقية أصبحت مجالا لخطب النديم حتى استدعى عرابى إلى القاهرة بحجة أن يكون قريبا منه فيتيسر له "إعطاؤه النصائح فى كل وقت" ثم وافق بعد ذلك على تعيينه وكيلا للجهادية نتيجة لإصرار البارودى واستحسان باقى النظار لرأيه، ولما أحس شريف باشا بخطورة النديم أراد الترصد له ولصحيفته، ولكنه لم يفلح فى ذلك، وبعد أن اتضح للجميع أن النديم هو داعية الجيش الأول وجهاز إعلامه المتنقل طلب منه عرابى تغيير اسم جريدته بما يلائم الظروف التى يمر بها الوطن فأصدر النديم "الطائف".

وسارت الأمور بطريقة طبيعية وكادت تتمكن الحياة الدستورية من السير فى طريقها السليم لولا أن ذلك لم يوافق هوى كل من إنجلترا وفرنسا فافتعلتا سلسلة من الأزمات لعرقلة الأمور وبدأ تدخلهما يظهر بصورة سافرة، ولما حاول شريف

باشا مهادنة النفوذ الأجنبى بالحد من سلطة النواب من الاطلاع على الميزانية ثارت ثائرة معظم أعضاء المجلس مما دفع شريف إلى الاستقالة وانتقال مقاليد الأمور إلى الحزب العسكرى وأنصاره فتألفت نظارة محمود سامى البارودى وعين فيها عرابى ناظرا للجهادية، وبذلك نجح العرابيون فى السيطرة على الموقف، وتحقيق آمال الأمة، وإضعاف مركز الخديو، وقد استهلت نظارة البارودى عهدها بأن جعلت من حق المجلس النظر فى الميزانية والإشراف على أحوال البلاد المالية مع تعهدها باحترام الارتباطات الدولية والالتزامات المرتبطة بالديون كما كونت مجلسا لرفع الاستبداد الإدارى عن الشعب والمساعدة فى تجهيز القوانين واللوائح الإدارية سمته مجلس شورى الحكومة، وإزاء هذه المواقف برز دور عبد الله النديم فى الدفاع عن حكومة الثورة وفى إشعال القلوب بجذوة الحماسة ونور الوطنية والدفاع عن مجلس النواب وحقه فى الإشراف على الميزانية كما هاجم مساوئ الأوربيين فى جعل الشرق ضعيفا، وندد بالتدخل الأجنبى والصحف الأجنبية التى اعتبرت الدفاع عن الحقوق عدوانا على الأجانب، والتى صورت الأزمة بتعصب دينى من المصريين. كما شارك النديم بخطبه البلاد فى بهجتها بانتصار مجلس النواب حيث قدم على العاصمة المهنئون من قاصى البلاد

ودانيها على اختلاف المذاهب للتهنئة، ونجح فى تعبئة الرأى العام وتنمية الوعى القومى لدى الشعب، وإثارة مشاعر أبنائه وإبراز ما يحيط بهم من ظلم داخلى وخطر خارجى بدرجة مؤثرة كما أصبحت جريدة «الطائف» أولى الصحف الوطنية حتى أن معظم الصحف اعتبرتها الجريدة الرسمية. وإزاء هذا الابتهاج الوطنى أحس الكثير من الأوربيين المقيمين فى مصر بالفزع والخوف على أنفسهم فأخذ بعضهم فى الهجرة.

سارت الحركة الوطنية تحدوها الرغبة فى التقدم، ولما كان النديم يمثل الجانب المتطرف فى فكر قادة الثورة فقد اقترح أن ترسل كل المكاتبات الرسمية إلى الحكومة لا إلى الخديو، وألا يكون من حق الخديو الموافقة على شىء دون موافقة الحكومة، ولما عرض الأمر على الخديو رفض قبوله، وتجنبا للصدام معه اضطر الوزراء إلى التخفيف من لهجة هذا الإجراء تحاشيا لأى متاعب مما أثار شعور النديم فتمرد ضدهم وطالب بخلع الخديو.

وفى غمرة هذا الابتهاج الوطنى تآمر بعض الجراكسة على اغتيال الزعماء الوطنيين وقتل كل وطنى له منصب كبير ولما كشفت المؤامرة أقيمت الاحتفالات والولائم بالإسكندرية تهنئ بسلامة رجال الثورة وتندد بالمتآمرين، وقد ألقى عبد الله النديم فى هذه الاحتفالات خطبا تناولت ذم الشراكسة والتنبيه على

سلامة عرابى، وبعد أن حوكم المتآمرون رفض الخديو التصديق على الأحكام الصادرة ضدهم، مما أدى إلى حدوث أزمة عنيفة بينه وبين العرابيين، هاجم النديم فيها الخديو هجوما عنيفا ولقبه بالخائن المخدوع، ولما توسط النواب للتوفيق بين الطرفين اشترط الخديو تعطيل "الطائف" لشدة ما وجهته إليه من إهانات، ولما كان الموقف خطيرا والرأى العام فى حاجة إلى تهدئة، والأنباء تتردد بوصول السفن الحربية الإنجليزية والفرنسية إلى مصر أصدرت الوزارة قرارا بتعطيل «الطائف» و«المفيد» فى ١٧ مايو ١٨٨٢ لمدة شهر مما يوضح لنا أن العقل المنظم للثورة لم يكن عقلا ارتجاليا أو معدوم الخبرة تماما بل كان عقلا تكتيكيا مع رفع شعار المحافظة على السلام الداخلى فى الوقت المناسب والتزام النديم به، كما يتضح ثقة رجال الثورة فى تأثير الطائف على الشعب.

سارت الأمور بما قد لا يعطى مجالا لأى تدخل أجنبى، ولكن ما إن وصلت الأساطيل الحربية إلى الإسكندرية حتى تقدمت إنجلترا وفرنسا بمذكرة مشتركة فى ١٨٨٢/ ٥/ ٢٥ يطلبان فيها إسقاط وزارة محمود سامى البارودى وإبعاد عرابى عن مصر، وتحديد إقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف. وقد وافق الخديو على المذكرة بينما رفضتها الأمة كلها، مما دفع البارودى إلى تقديم استقالته فى ١٨٨٢/ ٥/ ٢٦ احتجاجا على

هذا التدخل فوافق الخديو على الاستقالة، وتولى أمور الجيش بنفسه مما دفع كبار الضباط إلى التذمر، كما عملت محاضر وقع عليها الناس لخلع الخديو، وهاجت نفوس الشعب وعقدت الاجتماعات تأييدا للعرابيين وأرسلت جمعية الشبان بالإسكندرية وفدا إلى القاهرة ومعه محاضر موقع عليها بتأييد وزارة البارودى كما ظل عرابى على اتصال بالجيش والوطنيين موضحا لهم أن النظارة وإن كانت قد استعفت لأمر سياسى فإنه لم يستعف من رئاسة الحزب الوطنى.

فى غمرة هذه الأحداث برز دور النديم فتوجه إلى الأزهر، وخطب فى رجاله فأشعلهم حماسة وزادهم وطنية وإيمانا بالثورة حتى أفتى بعض المشايخ بتكفير الخديو ثم توجه إلى الإسكندرية يخطب فى الناس متهما الخديو بالرغبة فى بيع البلاد للإنجليز، وبأنه هو الذى طلب إحضار البوارج الحربية الإنجليزية إلى الإسكندرية لاحتلال المدينة وقتل كل مسلم بها وضرب مساجدها فأشعل الروح الوطنية والدينية وأيقظ النفوس فوردت التلغرافات من طبقات الشعب كافة تؤيد العرابيين فى موقفهم الوطنى.

والتحمت طبقات الشعب فخرج العلماء والمشايخ والنواب والأعيان ومجموعة من التجار وأرباب الحرف إلى الخديو

مطالبين بإبقاء عرابى فى نظارة الجهادية حفاظا على الأمن وتسكينا للاضطراب لأنه فى حالة عدم قبول ملتمسهم سيحصل قتل عام، فاضطر الخديو تحت هذا الضغط الشعبى إلى إعادة عرابى إلى نظارة الجهادية والبحرية.

ونتيجة لتطورات الأحداث حاول السلطان العثمانى استغلال الموقف بهدف عودة سلطانه المتدهور فى مصر فأرسل بعثة برئاسة درويش باشا لتقصى الحقائق والتحقيق فى أمر الخلاف بين الخديو والوزارة فوصلت إلى الإسكندرية فى ٧ يونيو ١٨٨٢، فأرسل كل من الخديو وعرابى مندوبين لاستقبالها كما سافر النديم إلى الإسكندرية كى يهيئ الناس لاستقبال البعثة والاحتجاج على المذكرة المشتركة ووجود الأسطولين، فعلّم الرجال والنساء والأطفال نشيدا يردده واحد منهم هاتفا: اللايحة اللايحة. فيرد عليه الباقون: مرفوضة مرفوضة. ارموها، ارموها.

ولما وصل درويش إلى القاهرة استقبله الشعب فى الطريق بهتافات يمدحون فيها عرابى ويخفضون من شأن الخديو، وبعد أن أحس النديم بميول درويش العدائية تجاه الحركة الوطنية عقد اجتماعا بالأزهر هاجم فيه البعثة التركية هجوما عنيفا مما هز مركز البعثة وجعل أغلبية الناس ينادون برحيلها من البلاد ولو بالقوة.